روّاد الحضارة

اهمّ المسائل التي تشغل الافكار في هذه الايام مسألة رجل فرنسوي اسمهُ مرشان جاب جاباً من اواسط افريقية رافعاً الراية الفرنسوية الى ان وصل بها الى محلّة اسمها فشودة على النيل الابيض فنصبها فيها حاسباً ان البلاد التي مرَّ بها صارت في حمى دولتهِ . ولم نطّلع حتى الآن على ما رأى في طريقهِ من المخاطر ولا على ما تجشّم من المشاق ولكن لا بدَّ من انهُ لقي ما يلقاهُ روّاد فريقية عادة من الاهوال التي لا يقوى عليها الاّ كبير الهمّة ماضي العزيمة . وقد اطّلعنا بالامس على وصف ما لقيهُ رجل آخر من هؤلاء الروّاد فرأينا ان نلخّصهُ لقراء المقتطف لان فيهِ عبرة لنا نحن ابناء المشرق — عبرة بقوم يتمثّلون بقول شاعرنا الذي قال

تحقّر عندي همتي كلّ مطلب ويقصر في عيني المدى المتطاولُ

ويعملون على مقتضاهُ فيفتحون الممالك ويمتلكون البلاد كما سيتضّح من القصة التالية. قال الكاتب :

هلّ شهر يناير (ك ٢) سنة ١٨٩٣ وانا ورفيقي فلان نازلان على الطرف الجنوبي من بحيرة نياسا [1] ومعنا نحو مئتين من الاهالي لحمل امتعتنا فنصبنا خيامنا في بقعة طيبة تحت اشجار غيناء بجانب ضفّة البحيرة وكنا نسمع امواجها تتنفّس على الرمال متثاقلةً ونرى افراس النهر تسبح وهي تشخر وتخور وضربت واحدة منها زورقي فقلبتهُ وكدت اغرق فيهِ لولا التقادير . وكانت بضاعتنا من الخرز والاقمشة [2] قد نفدت ووقفنا في حيرة لا ندري كيف نؤمن رجالنا فكنا نمضي كل يوم نصيد ما نعثر عليهِ طعاماً لهم. وكانت الامطار غزيرة والارض مغطاة بالمياه فكنا نلاقي الاهوال في صيد ما يسدُّ الرمق . ولما انتصف الشهر رأينا ان نتصل ونعود ادراجنا الى مدينة بنتير [3] وهي اقرب مكان نرجو ان نصيب فيهِ طعاماً . فسرنا اياماً كثيرة بجانب نهر شيري ونحن نخوض في المياه ونرتطم في الاوحال

ومرض رفيقي هناك ولم يعد يستطيع السير معنا فوضعتهُ في زورق صغير في ذلك النهر آملاً ان يجري بهِ الى حيث اقصد. وواصلتُ السير مع رجالي ونحن نتبلّغ بما معنا من الطعام تبلّغاً وهم لا يتذمّرون ولا يشكون الى ان بلغنا بعض القرى فرأيناها قفرى لا ساكن فيها وعلى كل آكمة من الآكام المجاورة لها رجل يترصّد فامرتُ رجالي ان يقفوا وارسلتُ الترجمان

(١) في الجنوب الشرقي من افريقية

(٢) يأخذ السياح هذه البضائع بدل النقود فيقايضون الوطنيين بها على ما يقدم من الطعام والمصانع

(٣) جنوبي بحيرة نياسا

يا ابني بخرم فعاد بعد هنيهة ومرّ بخرم خوة فضحكت لما رأيته وقلت ما خبرك هل رأيت الاسد في طريقك فقال كلا بل حدثت واقعة امس بين البيض والسكان الذين شقوا عصا الطاعة قُتل فيها خلق كثير ولذلك هُجرت هذه القرى

فلما سمع رجالي كلامه تولاهم الرعب واختطف كلٌّ منهم حملهُ وهمّ بالفرار للاختباء في الغابات ولم اجمع شملهم الاّ بعد عناء شديد. ثم حاولت اقناعهم انهُ خير لنا ان نقتفي آثار البيض وننضم اليهم فزادوا نفوراً وصراخاً وقالوا انهم يتركون احمالهم ويفرّون . ولما رأيتُ الكلام معهم لا يجدي نفعاً جاريتهم على مرامهم واتفقنا على ترك الطريق الذي سار فيهِ البيض ودخول الغابة واختراقها الى ان نصير جنوبي القرى المهجورة. ولم اتمكن من اقناعهم بالمسير معاً الاّ بشق الانفس

وكانت الغابة كثيرة الادغال فكان الدين في المقدّمة يفتحون الطريق بالسعي يضربون بها النبات الملتف حتى يسهل السير عليهِ ويتناوبون على ذلك لما فيهِ من المشقّة الى ان بلغنا منفرجاً في وسط الادغال فنزلنا فيهِ وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب . ثم خلعتُ ثيابي واغتسلتُ بحرام وقصدت بركة ماء قريبة من محلتنا لاغتسل فيها ولم أكد اغوص في الماء حتى سمعت صيحة عمّت لها اذناي تبعها اطلاق النار من نحو خمسين بندقية فالتفتُّ واذا رجالي فارّون كالنعام الجافل ثم نظرت الى غيّمنا فرأيت الاعداء فيهِ وهم من السكان العصاة فعمتْ على وجهي في تلك الادغال حافياً عارياً والرصاص يصفر حولي الى ان بلغت مكاناً اكشف من غيرهِ وانبطحتُ تحت ادغالهِ واقتُ اترقب الموت بطعنة رمح تقضي عليَّ لكن الرجال ابعدوا عني ولم يهتدوا اليَّ. فانتظرت الى ان اشتدّ حلك الظلام وعزمت ان اسري الى مدينة متوب على نهر شبري وقد قدّرت انها تبعد عني ثمانين ميلاً . وكان البعوض قد اهتدى اليَّ واوسعني لدغاً فقمتُ ارقب النجوم لاهتدي بها الى الجهة التي يجب ان اسير فيها وتسلّلت اولاً نحو المخيم لعلي اجد فيهِ ثوباً اضعهُ على بدني او بندقية ادافع بها عن نفسي فسمعت الرجال يفتحون صناديق ونهبتْ من حديثهم انهم كانوا عازمين ان يبيتوا هناك ويحتملوا كل شيء في الصباح فخاب املي ولم يبقَ لي الاّ ان انتجم تلك المهامه حافياً عارياً ثمانين ميلاً او اكثر اذا كان لي في الحياة مطمع. ولم اكد اسير ميلاً واحداً حتى رأيت امامي حصيرًا صغيرةً تعايناتم عليهِ السكان كأن واحداً منهم هرب بها الى الغاب لما سمع اطلاق البنادق وتركها هناك فلففتها واخذتها غنيمة باردة وغماً عن رائحتها الخبيثة لاني كنت محتاجاً اليها جداً . ثم بلغت وادياً عميقاً كثير الشجر فقطعتهُ ولما بلغت الجانب الاخر منهُ وجدت الارض سهلاً فجلست انتظر نور

الصباح وانا مقرّح القدمين مهشّم الجسم

ويا لك من ليل كأنّ نجومهُ بأمراس كتان الى صمّ جندلِ

ليل لا تبرح ذكراهُ من ذهني مدى العمر ذقت فيهِ الموت الوانًا وبقيت حيًّا لارزق . مرّت الضباع تضحك والذئاب تعوي ولم اعبأ بها لاني كنتُ مشغولاً عنها بعوض يدمي نابهُ الاسد . وانجبت جانبًا من الليل احاول خصف خفّ من النبات احتذي بهِ فلم افلح

ثم بزغ الفجر فحمدتُ الله وتسلقتُ شجرة عالية اشرف على ما حولها من البلاد فرأيت التلال التي تحتها مدينة متوب حيث الحاكم الانكليزي وحالما تحققت جهتها نزلت وسرت نحوها ولم ابالِ بما كنتُ اجدهُ من الالم لتقرّح قدميَّ ووعورة المكان . وقبل الظهيرة بلغت غابةً كثيفة ملتفة القصب فاسقط في يدي لاني خفت ان تكون واسعة امامي فصعدت على شجرة ورأيت منها انها ضيقة لا تتجاوز خمس مئة ذراع فجعلت التي نفسي على القصب حتى يتجلى لي ما وراءهُ فتجرح بدني كالمواسي الى ان خارت قواي فارتميت على الارض قاطعًا الامل من النجاة . وبعد قليل عاودني نشاطي فتممت وواصلت السير الى ان قطعت الغابة كلها بعد عناء لم اذق امرَّ منهُ . ولم اسر بعد ذلك الاَّ قليلاً حتى وصلت الى طريق مطروق يتجهُ مقاطعًا الجهة التي كنت سائرًا فيها . فصعدتُ على شجرة عالية واستشرفت منها البلاد فرأيت امامي حراجًا غبياء وادغالاً لا يمكن خرقها فحرت في امري لان الطريق الذي امامي لا يوصل الى الجهة التي كنت اقصد اليها والوصول اليها لا يكون الاَّ باختراق تلك الحراج وانا على ما انا من الجوع والعري وخور القوى ولقرّح القدمين . وكنت احمل غصنًا اطلق بهِ رأسي الحاسر من اشعة الشمس المحرقة لكنها كانت تحرقهُ بحدتها حتى كدت اصاب بالزعن مرارًا كثيرة فاخترت الطريق المطروق وسرتُ فيهِ ولم ابعد كثيرًا حتى رأيت نحو عشرين من الوطنيين يحملون البنادق سائرين نحوي ولم اعلم أمن الاصدقاء هم ام من الاصدقاء ولكني صلّبت وجهي وبقيت سائرًا في طريقي الى ان دنوت منهم فنادتهم لاستدلَّ منهم على الطريق فلما سمعوا صوتي ذعروا وفرّوا من امامي واختبأوا في الغاب . فجعلت اناديهم واؤكد لهم اني سائر وقاصد الاستعانة بهم ولكني لم القَ مجيبًا كأنهم حسبوني من الجان فهربوا من وجهي

وكنت قد اعتدت الالم ولم اعد اشعر بهِ فظللت سائرًا الى العصر وحينئذٍ بلغتُ قرية كبيرة تسع الوفًا من السكان فتفرّج عني بعض ما بي . ويكون في هذه القرى ساحة كبيرة في وسطها فسرت اليها ووقفت فيها وانا التفتُ يمنةً ويسرةً فلا اجد احدًا . وبعد قليل رأيت رؤوسًا تطلُّ من شقوق البيوت لان السكان خافوا مني واختبأوا في بيوتهم ثم لما

رأوا اني بشر مثلهم ولا سلاح معي خرجوا اليَّ واجتمعوا حولي فالتفتُّ الى واحد منهم فلثمتهُ شيخهم ووقفت لهُ تحري بالكلام والاشارات فنهمني واخبرني ان رجالي مروا بقريتهِ في منتصف الليل فطلبت منهُ ان يرسل رجالاً من قومهِ الى الحاكم الانكليزي في متوب فيرسل اليَّ محفة أحمل بها ويدفع لرجالهِ اجورهم اكثر مما يتطلبون. فذهب هو ورجالهُ جانبًا وتشاوروا ساعةً من الزمان ثم عادوا اليَّ وقد قرَّ قرارهم على ارسال رجلين الى الحاكم فسررت بذلك وطلبت منهم لحمة وورقة جافة من ورق نبات الميالي وهو نبات عريض الورق فكتبت عليها الى السرهري جنستن حاكم متوب اخبرهُ بحالي. وبينما الرجلان يتأهبان للسير دخل الخلقة رجل كبير السن كان غائبًا وسأل ما الخبر فقالوا لهُ فقال انهُ لا يرسل احدًا من رجالهِ الى متوب ولا يسمح لي بالبقاء في قريتهِ ثم قال ان الرجال الذين اوقعوا بكم لا بدَّ ان يكونوا مقتفين اثرك وهم من قبيلة ليوادي العاصية فاذا رأوك في قريتنا احرقوها وقتلوا اهلها. فتوسلت اليهِ ليشفق عليَّ لانني لم اكن استطيع المشي فاصرَّ على خروجي من قريتهِ. ولما فرغت جعتي من التذلل والتوسُّل جعلت اتهدَّدهُ بان الحاكم لا بدَّ وان يعلم ذلك فيقتص منهُ ومن قومهِ فلم يجدِ كلامي نفعًا واخيرًا تألَّب عليَّ نحو خمسين من رجالهِ وطردوني طردًا

فسلمت امري للتقادير وسرت في طريقي وانا اكاد اغيب عن الصواب من شدَّة الالم والجوع. وبعد قليل حضرت اعصابي فقلَّ شعوري بالالم وكنت قد قطعت الامل من الوصول الى متوب ولكنني ظللتُ سائرًا الى ان بلغت نهرًا كبيرًا عند المساء فطرحت نفسي فيهِ فلم استطع السباحة وعاد بي التيار الى الضفة التي نزلت منها ولما بلغتها اعترتني البرواء وحينئذٍ خارت عزيمتي وفارقني جلدي ولم يبقَ فيَّ شيء من نشاطي السابق فقلت قضي الامر ولم يعدُ في قوس الرجاء منزع. ثم التفتُّ واذا كوخ على مقربة مني فجررت نفسي اليهِ ودخلتهُ وانطرحت فيهِ وانا ارتجف وانتفض ورآني صاحب الكوخ فرقَّ لي وتركني في مكاني وغادر زوجتهُ جريشًا سفتي مادهُ فانعشتني وسدَّت رمقي وبقيت تلك الليلة مطروحًا على الارض وانا اقرب الى الموتى مني الى الاحياء

وفي الصباح طلبت من صاحب الكوخ ان يأخذ مني رسالة الى الحاكم الانكليزي فقال انهُ اذا تركني وذهب متُّ جوعًا لان ليس عند زوجتهِ شيء تطعمنيهِ ثم قال انهُ يمضي ويخبر رئيسهُ بامري فمضى وجاءني بعد قليل بستة رجال من قبل الرئيس ليحملوني اليهِ فلفوني بقدد مما يلفونهُ حول احقائهم حتى صرت كالمومياء المصرية وحملوني بعود كبير كالنعلة وحملوني بينهم ولم اكن اعلم ما غرضهم مني ولا كنتُ لأبالي لاني

رماني الدهر بالارزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
فصرت اذا اصابتني سهام تكسرت النصال على النصال

وبعد ان ساروا في مسافة طويلة بلغوا نهرًا فخاضوهُ وهم يحتمونني معتقًا في العشية بينهم فغصت في الماء مرارًا وكنت اخشى وعبروا بي النهر سالمًا ثم بلغوا قرية الشيخ فطرحوني امام بابهِ وحلوا رباطي . وخرج اليَّ الشيخ وهو رجل كبير السن بشوش الوجه فصافحني ورثا لحالي وقال انهُ بلغهُ قصتي من اولها الى آخرها . ثم اشار الى كرح فتولوني اليهِ واتوني بشيء من الطعام والسمك المقدَّد فالتهمتهُ التهامًا واعطوني حصيرًا لانطعطبها وكان جسمي مقرَّحًا فلم اطقها عليهِ . وزارني الشيخ في الصباح فطلبت منهُ ان يرسل الى متوب يخبر الحاكم بأمري فارسل اثنين من رجالهِ لهذه الغاية وطلبت منهُ ايضًا ان يرسل لي دقيقًا لاصنع منهُ لصوقًا لقدميَّ فلما بللتهُ بالماء تحرَّك فيَّ الجوع فالتهمتهُ

ولما مرَّ عليَّ اسبوع وانا في هذه القرية وكاد ينقطع املي من رجوع الرسول جاء الشيخ وقال انهُ يرى اناسًا من الغرباء قادمين نحو قريتهِ . ولم يكن الاَّ قليل حتى اقبل ترجماني ومعهُ عشرة من الجنود فان رجالي بلغوا متوب سالمين الاَّ خمسة منهم واخبروا الحاكم بما جرى لنا فبعث بهؤلاء الجنود للتفتيش عني وبعث اليَّ معهم بالثياب والطعام والشراب فاكلتُ وشربتُ ولبستُ وطابت نفسي وارسل لي محفَّة فحملوني فيها وساروا بي مسرعين فقطعوا خمسين ميلاً في يوم واحد الى ان بلغوا متوب . ولم استفد من هذا الانتقال السريع فعاودتني الحمى واشتدَّت وطأتها عليَّ وعالجني الطبيب فشفيت منها ودملت فروح بدني في شهر من الزمان وفروح رجليَّ في شهر آخر . وافتصَّ الحاكم من قبيلة ليوندي وغنمها درسًا لا تنساهُ مدى العمر . انتهى

هذا وقد بلغنا بعد كتابة ما تقدَّم ان مرشان التي من المخاطر والاهوال شيئًا كثيرًا وانهُ كثيرًا ما كان يقطع البلاد خوضًا في الماء والاوحال . ومن طالع رحلات لفستن وسبيك وبرتن وستنلي وغيرهم من روَّاد العمران في افريقية رأى انهم كثيرًا ما تجشموا من المشاق مثل تجشم هذا الرجل ومع ذلك يتبع الرحَّالة الرحَّالة وتفتح البلاد للتجارة والحضارة الى ان تخضع كلها لسلطة الاوربيين . ولا ندري ما يكون نصيب اهلها بعد ذلك اينتفعون من اساليب الحضارة التي تمهَّد لهم ام يتهافتون على معايب العمران الاوربي ويقتصرون عليها فتضعف ابدانهم وينقرض نسلهم . وسبيل العمران يجرف الاقاء ويبقي الادواح والله يورث الارض عبادهُ الصالحين